بداية البحث الأثري في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية

(نظرة تقييمية: فترة ما قبل التاريخ نموذجا)

تقديم أ: عبد العزيز بن الأحرش

معهد العلوم الاجتماعية

جامعة قسنطينة

المقدمة:

هذه المساهمة التي نتقدم بها في هذا الملتقى الوطني حول مساهمة البحث الأثري في تثمين التراث الحضاري الجزائري وصيانته، تتعرض، بشيء من الاختصار، إلى بداية البحث الأثري في الجزائر على يد علماء الآثار الفرنسيين. كما تطرح جملة من الإشكاليات التي صارت تواجه الباحثين الجزائريين اليوم. لكنها لا تقدم الحلول، أو البدائل لها، لأن هذا يتطلب جهودا جبارة تقع على عاتق كل الباحثين في مجال الآثار.

ونظرا للاختلاف في محتوى وطبيعة المكتشفات الأثرية التي تمت على يد هؤلاء الباحثين، وقد شملت مختلف العصور التاريخية (ما قبل التاريخ، العصور القديمة، العصر الإسلامي الوسيط) سأقتصر، في هذه المساهمة، على طرح بعض الأفكار تتعلق بما تم اكتشافه من بقايا أثرية تعود إلى عصر ما قبل التاريخ، بحكم الاهتمام الذي أوليه لهذه الفترة من تاريخ البشرية.

عصر ما قبل التاريخ:

عندما نلقي نظرة فاحصة ومقارنة، في الوقت الحالي، على فترة ما قبل التاريخ، نلاحظ أن الصورة العامة أو السمات البارزة التي تبين المراحل التي قطعتها البشرية خلال هذا العصر، تبدو أكثر وضوحا للباحثين الحاليين، مما كانت عليه خلال القرن الماضي(1)، ولا مجال للمقارنة بينها. وهذا الوضوح الظاهر، يرجع الفضل فيه إلى العمل الهائل الذي قام به الأثريون، بالتعاون مع العديد من علماء تخصصات أخرى قدمت مساهمتها حول الكثير من القضايا الهامة في دراسة مرحلة ما قبل التاريخ. مثل الدراسات والحقائق التي توصل إليها علماء الباليونتولوجيا، التي أوضحت المسار العام الذي مرت به الكائنات الحية على سطح الأرض، ومساهمة علماء الجيولوجيا الذين قدموا حقائق بموجبها فسرت مختلف الظواهر الطبيعية التي كانت وراء تشكيل وجه الأرض الحالي وكيف مهدت الجو لمجيء البشر، ولا ننسى علم الفيزياء، علم البيولوجيا والوراثة وعلم الإنسان ... إلخ.

هذا يفرض علينا، قبل الحديث عن دوافع الاهتمام بالاكتشافات التي تمت بالجزائر، إلى إلقاء نظرة على عصر ما قبل التاريخ، كما نعرفه حاليا.

الأدلة والمخلفات الأثرية التي تم اكتشافها من قبل علماء آثار ما قبل التاريخ خلال مدة زمنية تقترب من قرن ونصف من الوقت الحالي(2)، تدل على أن هذا العصر قد بدأ منذ أكثر من مليونين من السنين، وانتهى منذ حوالي ستة آلاف سنة الماضية في منطقة الشرق الأدنى القديم(3)، مع ظهور الكتابة هناك لأول مرة، ومنها أخذت في التوسع والانتشار خارج مراكزها الإشعاعية هذه. وخلاله حققت البشرية جملة من الإنجازات الهامة في حياتها، وبقيت الأجيال تحافظ عليها، وما ترتب عنهما.

أ – معرفة، أو اكتساب الكفاءة والخبرة في الحصول على الغذاء، هذا بصنع الأدوات اللازمة لذلك، فكانت أساسا من مادة الحجارة، الخشب، عظام الحيوانات، في بداية الأمر، ثم اهتدى إلى الصناعة المعدنية في آخر هذا العصر الطويل كما تعرف على مختلف أنواع الموارد الضرورية لقوته من: ثمار، فواكه، خضر، جذور ودرنيات ... إلى جانب اكتساب خبرات ومعارف لصيد مختلف الحيوانات التي اعتاد على أكل لحمها. وكان الطابع العام الذي يميزها، هو مجتمعات جني وقطف الثمار وصيد الحيوانات، على اختلاف أنواعها وأحجامها. وهذا الأسلوب المعيشي ألزمها التنقل المستمر جريا وراء هذه الموارد الغذائية، على امتداد مساحات شاسعة من الكرة الأرضية، وأقاليم

مناخية وتضاريسية متنوعة، عبر فصول السنة. بمعنى أنه لم يعرف الاستقرار الدائم. وقد دامت هذه الفترة مدة زمنية تقدر بأكثر من 99 بالمائة من عمر مرحلة ما قبل التاريخ كلها.

ب – التوصل إلى إنتاج الغذاء، فهذه العملية الهامة جاءت بعد خبرات وتجارب عديدة اكتسبها خلال المرحلة الأولى(4). ويتمثل هذا الإنجاز في استئناس بعض الحبوب التي كان يعتمد عليها في السابق مثل حبوب القمح البري والشعير وغيرهما من الخضر التي توصل إليها في بعض المناطق من جنوب غرب آسيا(5).

وتعتبر هذه نقلة نوعية في حياة البشرية(6) تستحق أن يطلق عليها مصطلح (الثورة النيوليتية)(7). وترتب عن هذا أن حدثت تغيرات هامة، تمثلت في المناحي التالية من حياة المجتمعات التي مهدت الطريق لدخول العصر التاريخي. وهي كما يلي بشكل عام:

– تخلت مجتمعات الشرق الأدنى القديم من التنقل، وركنت إلى الاستقرار ضمن بيئات طبيعية مناخية ملائمة لمعيشتها.

– ضمان مورد غذائي دائم حررها من المستقبل المجهول الذي كان يعيشه خلال المرحلة السابقة، بحيث اطمأن على حياته وحياة أبنائه، الأمر الذي «دفعه» إلى الالتفات نحو تحسين ظروفه الاجتماعية وكذا الاهتمام بالقضايا الفكرية، أو الدينية والفنية ... إلخ.

– هذه النقلة، كانت، كذلك وراء التطور السريع الذي بدأت تعرفه البشرية، في جميع مجالات الحياة، مقارنة مع الفترة السابقة، أي العصر الحجري القديم.

يتضح هذا، عندما نأخذ بعين الاعتبار المدة الزمنية التي استغرقتها كل فترة من هاتين الفترتين. بالنسبة لمرحلة «التنقل» بدأت منذ حوالي مليونين وثلاثمائة سنة، وفقا للاكتشافات الأثرية التي تعكس نشاط البشر الأوائل، وانتهت في حدود العشرة آلاف سنة الماضية، وكان هذا بداية ممارسة الزراعة التي فرضت نوعا من الاستقرار على أصحابها. فماذا تساوي عشرة آلاف سنة من حياة البشرية أمام تلك الفترة الأخيرة، فإنها لا تعد ولا تحصى، مما جعلها تتجاوزها من هذه الناحية، أي نوعية التطور، ففي فترته الأخيرة كانت وتيرة التطور سريعة جدا بفضل الاستقرار وممارسة الزراعة، وكانت بطيئة في المرحلة الأولى بسبب التنقل المستمر.

وخلال هذا العصر اقتصرت وسائلهم وأدواتهم، التي اعتمدوا عليها في طلب المعيشة والتصدي للمخاطر، على مادة الحجارة، كمادة أولية، إلى جانب أدوات مصنوعة من مواد عضوية (الخشب وعظام الحيوانات).

والنمو الهائل الذي تعكسه كثرة البقايا للأدوات الحجرية، من حيث الكمية والنوعية، والتطور الذي حصل في كيفية التعامل معها، من حيث اختيار المادة الخام الأولية صقلها وفقا لأساليب وطرق متنوعة ومتعددة، والوظائف المختلفة التي صنعت من أجلها، كل هذا، وغيره، أدى بعلماء آثار ما قبل التاريخ، منذ القرن الماضي، يجتهدون في فهم هذه الكيفيات، مما دفعهم إلى تقسيم عصر ما قبل التاريخ إلى ثلاثة عصور كبرى، وكل عصر قسم بدوره إلى مراحل وأدوار

حسب ما تقتضيه الدراسة والبحث(8) وهي:

1 - العصر الحجري القديم Patéolithique ما بين مليونين وثلاثمائة وعشرة آلاف سنة الماضية.

2 - العصر الحجري الوسيط Mesolithique ما بين 12 ألف أو 10 آلاف سنة ونهايته تختلف من منطقة إلى أخرى.

3 - العصر الحجري الحديث Neolithique بدأ في منطقة الشرق في حدود 8 آلاف وانتهى مع ظهور الكتابة في تلك المنطقة، بينما مناطق أخرى من العالم بقي مستمرا فيها إلى غاية الألف الأولى (مثل شمال إفريقيا).

فهذه الصورة المعرفية والتاريخية المقدمة بهذا الشكل المختصر، عندما نقابلها بالمعرفة التاريخية التي كانت سائدة خلال القرن الماضي، وإلى غاية منتصف القرن الحالي تقريبا، نجد أن المنظر الذي نشاهده وتقدمه مؤلفات المؤرخين مغايرة تماما، ولا تشفي غليل وفضول الباحث الحالي. ويرجع ذلك لجملة من الاعتبارات، منها الموضوعي، وفيها الذاتي يتمسك ببعض المسلمات الملقنة:

- غياب علم قائم بذاته يدرس هذه الفترة التي كانت غير معروفة لدى المؤرخين القدماء.

- عدم الفصل بين العلماء في مشكلة أولوية المادة التي سخرها الإنسان في صناعة أدواته: المعدن أم الحجارة؟ وهذه الإشكالية استغرقت مناقشتها عدة قرون بين الباحثين الأوربيين.

- لم تطرح قضية قدم البشر على الأرض وتطورها إلا مع الستينات من القرن الماضي، نتيجة لمستجدات علمية وفكرية طرحت على الساحة الأوربية.

- المسلمات والبديهيات التي كانت سائدة حول ظهور الحياة والكائنات الحية على الأرض، أو اختفائها، التي كانت تلقنها الكنيسة لرجالها ولعامة الناس، وكيف بنيت الاكتشافات العلمية الجديدة الطابع الخرافي الذي سيطر على تفسيرها.

- المحاولات التي بشأن جمع الأدوات الحجرية، كانت على يد الهواة الذين كانت لهم نظرة وأهداف نفعية مادية، أكثر منها معرفية وعلمية.

لكن مع بداية الستينات من القرن الماضي، بدأت تختفي شيئا فشيئا هذه العوائق، وظهر علم ما قبل التاريخ(9)، وأخذ يعمل على الفصل في قضية النقاش الدائر حول أسبقية الحجارة عن المعدن، لصالح الأولى مع التدعيم ذلك باكتشاف أثرية في الكثير من بقاع أوربا. وطرحت، وبقوة فرضية تطور الانسان من حيث الشكل والانتماء ومن حيث الرصيد الثقافي الذي أقامه. كما اتضحت لدى العلماء واعتمادا على الأحافير، صورة الحياة على الأرض، وكيف خلقت مختلف الكائنات الحية، وكيف انقرضت أنواع منها واستمرت أخرى في البقاء.

بمعنى آخر أن المسلمات والحقائق العلمية والمعرفية والتاريخية بمضامين تاريخ البشر ساهمت في تقديم البدائل وتصحيح

التفسيرات السابقة عدة تخصصات علمية، هي: علم الجيولوجيا، علم الباليونتولوجيا، علم الآثار. فإليهم يعود الفضل في رسم معالم البيئة الطبيعية كمسرح لأحداث ما قبل التاريخ، وكيف كانت الحياة آنذاك، وما هو البعد الزمني الذي شهد ظهورها واختفائها. لأن الحدث التاريخي، لا يمكن أن يقع إذا ما خلى من أحد هذه المكونات. كما فهم العلماء وأدركوا أن يتم بمعزل عنها.

وأمام هذه الوضعية الجديدة ازداد اهتمام وفضول الناس حول الكثير من القضايا التاريخية، فنشط البحث عن المخلفات الأثرية، لأغراض وأهداف متباينة. لذا يمكن تصنيف هؤلاء المهتمين إلى ثلاثة أصناف، أو فئات:

1 - **الصنف الأول** ينظر إليها من منظور نفعي مادي بحت، ويكون الدافع، أو الرغبة في البحث عن المخلفات الأثرية يتماشى ومقدار ما تدر عليه من ربح أو فائدة يجنيها من بيعها، بسبب قيمتها الجمالية الفنية، لكونها تحفة رائعة الصنعة والجمال، أو بسبب نوعية المادة المصنوعة منها: معدن نفيس، أحجار كريمة ... إلخ.

2 - **الصنف الثاني** يقتنيها ويجهد نفسه في البحث عنها قصد التفاخر والتباهي بإمتلاكها وعرضها على الناس بغرض الشهرة وكسب المكانة الاجتماعية، لا العلمية داخل المجتمع.

وهذان الصنفان من الناس لا تهمهما الكيفية التي تتم بها عملية البحث والتنقيب عن المخلفات الأثرية، مهما كانت طبيعة المادة المصنوعة منها، حجر، معدن، خشب، عظم ... إلخ.

3 - **الصنف الثالث** يختلف عن الصنفين السابقين، لأن همه لم يكن دافعه المنفعة المادية، لكن لغاية علمية ومعرفية. لهذا اتبع طرقا وأساليب محددة في كيفية التعامل مع مختلف اللقى الأثرية التي يستخرجها من باطن الأرض. وفي بحثه لا تهمه الناحية الجمالية، بقدر ما يهمه الموقع الذي وجدت فيه والكيفية التي توجد عيها، كما لا تهمه المادة المصنوعة منها تلك اللقى، بقدر ما تقدمه من معلومات تاريخية، تمكنه من تفسير الأحداث التاريخية التي عرفتها تلك المنطقة محل التنقيب. فكل البقايا، مهما كان شكلها، المادة المصنوعة منها سواء كانت رائعة الصنعة، أو فجة، صغيرة أم كبيرة، محطة أم سليمة، كلها تدخل في مجال اهتمامه ويقوم بجمعها والاعتناء بها. بكلمة أخرى هو مطالب بجمع كل البقايا التي نظره عليها عندما يقوم بالحفر في موقع أثري، من غير أن يكون مقيدا بانتقاء نماذج محددة مسبقا دون أخرى. فعالم الآثار عندما يبدأ في الحفر، بعد تحديد الموقع، فلا يعرف مسبقا ماذا سيجد في هذا الموقع، فكل ما يستخرجه فأسه يعتبر مهم، وذو فائدة علمية عكس الصنفين السابقين اللذان يقومان بعملية الفرز والانتقاء للأشياء والبقايا ذات الشكل المميز والمنظر الجميل أو من المعدن النادر الوجود، وثمنه غالي، فهو الذي يستحق الاهتمام.

إذن عملية التنقيب عن المخلفات الأثرية، مهما كان نوعها وشكلها يقوم بها عالم الآثار المتخصص الذي ينقب عن المصادر المادية التي تركها سكان منطقة ما، ودفنت في الأرض نتيجة عوامل طبيعية

مختلفة، القصد منها من وراء ذلك تقديم أدلة مادية إضافية، أو جديدة تساعد على إلقاء مزيد من الضوء على فترة تاريخية من تاريخ المجتمع. وبواسطتها يتعرف على مختلف الأنشطة التي قام بها أفراده ضمن بيئة طبيعية واجتماعية معينة، وعلى امتداد مراحل، أو مرحلة تاريخية محددة.

لا يهم، من هذا، بأن النواحي الأخرى -الفنية- الجمالية، الشكلية، نوع المادة المصنوعة منها -ليست لها قيمة في نظر الباحث المؤرخ، أو عالم الآثار. فالعكس هو الصحيح. فكيف يتسنى له التعرف على التاريخ الفني والمراحل التي مر بها- نقش، نحت، رسم، غيرها. وأهميته في حياة الناس القدماء، إذا ما أهملها وتغاضى عنها. فمن خلالها يتعرف على المستوى الفني والجمالي للبقايا الأثرية، ويقف على درجة، أو مدى اهتمام هؤلاء البشر وعنايتهم بما يصنعون من أدوات، وعلى ضوئها يمكن له أن يحدد مستوى رقية، أو انحطاطه عبر مراحل تاريخية.

ولقد أصبحت هذه المصادر الصامتة، المستقاة من البحث الأثري تقدم معلومات قيمة وتتميز بالدقة والموضوعية أكثر مما تقدمه كتابات المؤرخين القدماء(10)، التي تنحوا بعيدا عن الدقة العلمية ويطغى عليها خيال الروائي، وليست واقعية المؤرخ المدقق فيما يكتب ويستنتج.

بداية البحث الأثري في الجزائر

كما هو معلوم لدى الجميع أن بداية الأبحاث الأثرية المتعلقة بمرحلة ما قبل التاريخ كانت على يد بعض الفرنسيين مباشرة بعد

عملية احتلال مدينة الجزائر، فبدأوا البحث عن الآثار الرومانية، وفي المقابل تهديم بعض المعالم الآثار الإسلامية، وقصدوا من وراء ذلك إيجاد صلة التواصل مع الاستعمار الروماني الذي مر من هنا.

أما التنقيب عن أثار ما قبل التاريخ ارتبطت أهدافه، التي جاءت عن طريق الصدفة وبشكل عرض، بالمخططات «الاستكشافية» و«الإنمائية» التي شرعت فيها السلطات الاستعمارية في إنجازها لصالح رعاياها، وهذا بشق الطرق المعبدة، وإنشاء السكك الحديدية، قصد تأسيس شبكة من الطرقات لتسهل عملية التنقل السريع، والتوغل إلى عمق التراب الوطني، بهدف إرساء نفوذها، وقمع الثورات الشعبية التي كانت تتصدى لهذا التوغل. فكانت الوحدات الاستكشافية العسكرية والبعثات إلى مواقع كثيرة قصد دراستها والتعرف عليها من مختلف جوانبها وما تحتوي عليه من خيرات طبيعية ومعادن نفيسة. فإنها كانت تصطحب معها بعض الرحالة والمغامرين، إلى جانب بعض الجيولوجيين والجغرافيين. ومن هنا بدأت المعلومات الأولى عن بعض الاكتشافات الأثرية تبرز.

لذا نلاحظ أن جل الاكتشافات، في هذا المجال، تمت على يد أناس غير متخصصين في التنقيب عن الآثار، فكان الجندي والضابط، والرحالة والمغامر، والهاوي الذي يقضي وقت فراغه في البحث عن الآثار النادرة والجميلة، ففيهم الطبيب، المحامي، المعلم، الموظف ... إلخ.

المتصفح للأطلس الأرجيولوجي (ستيفان غزال) يقف على هوية هؤلاء الهواة وانتماءاتهم الاجتماعية والمهنية. لكن نسبة المساهمة

كانت متفاوتة من شخص لآخر، ومن فئة إلى أخرى. بحيث عندما نضع أمامنا خريطة للمواقع الأثرية التي تم البحث فيها من بداية الاحتلال إلى غاية الثلاثينات من القرن الحالي، نلاحظ أن المواقع الأثرية البعيدة عن الحواضر كانت من نصيب الرحالة والضباط والجنود، بينما المواقع المحاذية، أو القريبة من المدن، أغلبها اكتشفت على يد الهواة من أطباء، محامين، صيادلة، معلمين، موظفين ... إلخ.

وفي هذا الصدد يعتبر الرحالة الفرنسي (دوفريري Duveryrier) H.(11) من أقدم الرحالة الذين جمعوا كميات من الأدوات الحجرية في الصحراء، بالقرب من حوض (تيحوضين) القريب من مرتفعات (الهوقار)، وكان هذا منذ عام 1861(12). ومنذ ذلك التاريخ بقي هذا الموقع الأثري محل اهتمام علماء الآثار، لما احتوى عليه من أدوات حجرية تدل على استيطان الإنسان منذ وقت بعيد، وقد صنفت ضمن العصر الحجري القديم.

أما أقدم إشارة لبعض الكهوف والمغارات، التي يبدو أنها كانت محل اهتمام الرواد الأوائل، فإنها توجد غرب مدينة الجزائر، وجاءت المعلومات عنها على يد الطبيب (الكسندر بورجو A. Bourjou) الذي قام بعدة زيارات إليها فأشار إليها عام 1868 لأول مرة(13) وكان بصحبة الجيولوجي الأنجليزي (فلور Flower). وفي زيارة ثانية أشار فيها إلى وجود أدوات حجرية من الصوان وبعض شظايا العظام، من بينها قطعة فك تبدو بشرية. ويبدو، حسب الباحث (سوفيل Souville) اعتبار مغارة La pointe-pescade أقدم المغارات التي أطالتها يد باحث في

الجزائر(14). كما يعد الطبيب (بورجو) من الأوائل، إن لم يكن أولهم، الذين قاموا بأبحاث أثرية في العديد من الكهوف والمغارات التي كانت موجودة بضواحي العاصمة. لا بد من ملاحظة هنا، إلى هؤلاء «الباحثين» في الجزائر اتبعوا نفس التقليد السائد في أوروبا، وهو الإعتقاد بأن الإنسان الأول كان يسكن الكهوف، لهذا كانت بداية الاهتمام حول هذه الأماكن، لعلهم يجدون فيها آثارا مادية تعود لهؤلاء البشر الأوائل.

بينما الاكتشافات التي تمت حول الرسوم الصخرية، كانت أسبق من اكتشاف الكهوف، وقد تم أول اكتشاف عام 1847، لرسومات منطقة تحيوت، ومغارة التحتاني، في الجنوب الوهراني، على يد الطبيب (جاكو Jacquot)(15) ومن ثم توالت الاكتشافات لهذا النوع من الآثار في العديد من المواقع، ومنذ عام 1867 بدأت منطقة قسنطينة تفصح عن روائعها الفنية(16).

هذه عينات عن بداية البحث الأثري في حقل، أو ميدان عصر ما قبل التاريخ، لأنه من الصعب، إن لم أقل من المستحيل، التعرض إلى كل المواقع المكتشفة، بالنسبة لباحث واحد، أو عرضها في مثل هذا الملتقى.

وعندما نقيم النتائج التي حققها هؤلاء الأوائل، يمكن اعتبار أكبر نتيجة هي أنها مهدت الطريق أمام المختصين فيما بعد، سواء الموجودين في الجزائر أو في فرنسا، بأن هذا البلد، هو الآخر يحتوي على آثار ما قبل التاريخ مثل باقي الدول الأوربية.

أما من حيث الحصيلة العلمية وكيفية دراستهم لمختلف البقايا الأثرية المكتشفة، فلقد غلب عليها طابع العمومية، والاستنتاجات السريعة، التي كان هدفها إرضاء وإشباع بعض الثروات والطموحات الشخصية على حساب الحقيقة العلمية والتاريخية، ألم يفسر (بورجو) حجر الصوان الموجود في مغارة La pointe-pescade بأنها وافدة من مدينة (طروادة) وأنها كانت ملجأ لكل من الملك (إيني وديدون ENEE. DIDON) حسب ما ترويه الإنيادة(17). والباحث الذي يهمه هذا الموضوع يجد في أدبيات السجل الأثري: تقارير، حوليات، ورقات قدمها أصحابها للجمعيات العلمية، أو المنشورة في الدوريات والمجلات العديدة، قلت سوف يقف على الكثير من هذه التفسيرات.

لكن عندما نعود إلى هؤلاء الرواد الأوائل وإلى الجو الفكري والعلمي وكذا السياسي آنذاك، ونعرف طبيعة تكوينهم لا نندهش عندما نقرأ عنهم، بل نتفهم إلى حد ما لماذا وقعت تلك الأخطاء، وكيف ضاع الكثير من الآثار التي عملوا على استخراجها من الأرض ولم يعرفوا أو يحسنوا المحافظة عليها.

والعلماء الذين جاءوا بعدهم وكانوا مختصين في البحث الأثري حاولوا إعادة دراسة مختلف المواقع التي تم اكتشافها على يد هؤلاء الهواة، وأضافوا إليها عددا كبيرا من المواقع، وبينوا أن الجزائر توجد بها آثار تغطي مختلف أدوار العصر الحجري القديم الأسفل مثل موقع (عين الحنش) وأخرى للعصر الحجري القديم الأوسط مثل موقع (بئر العاتر) وثالثة، وما أكثرها تعود إلى العصر الحجري الحديث.

وعلى الرغم من هذا الزخم الكبير من المواقع الثرية، من حيث الكمية ونوعية الآثار التي قدمتها للدارسين، فإنها تثير جملة من المشاكل التي اعترضت طريق الباحثين، ولم تجب عن كل التساؤلات المطروحة منها، مشكلة تحديد أعمار الأدوات الحجرية التي وجدت في الصحراء على الخصوص، فقد تم جمعها من على سطح الأرض، الأشخاص الذين جمعوها ليس لهم تكوين يؤهلهم لمعرفة تاريخها، كما أن الكثير منها لا يعرف بالضبط الموقع الذي أخذت منه. ومن المتعارف عليه، إن سحب أية قطعة أثرية من مجالها قبل القيام بمختلف الترتيبات اللازمة، تحديد الموقع تصويرها ... إلخ فإنها تفقد، إلى ما قيمتها الخبرية، وتحتفظ بقيمتها كونها أداة حجرية مشذبة لا أكثر.

– المعلومات التي تقدمها المواقع الأثرية، والتي تعود إلى العصر الحجري القديم، فإنها قليلة وشحيحة في المادة الخبرية بشأن البشر الأوائل الذين عمروا هذا الجزء من القارة الافريقية.

– قلة العظام البشرية التي تخص هذا العصر أيضا، إن لم نقل منعدمة، وما تم العثور عليه لا يشفي غليل الباحث، ولا يستطيع أن يقدم المعلومات المطلوبة، أو يجيب عن الأسئلة المطروحة.

لكن هذه العوائق تبدأ في الاختفاء تدريجيا كلما توجهنا في الصعود نحو العصر الحجري الحديث، وهنا، كذلك المعلومات المستقاة من مواقع هذا العصر تتفاوت فيما بينها، من حيث الكمية ونوعية المعلومات، وحاول الباحثون التغلب عليها بالاستدراكات والإيضاحات

التي تدخل عليها من حين لآخر كلما يحدث اكتشاف جديد. وهذا يؤكد حقيقة، لا يجب إغفالها أو تجاهلها: إن المعلومات المتوفرة حول فترة من فترات ما قبل التاريخ، هي معلومات مؤقتة، يبقى على رأسها فأس الباحث الأثري، مع كل ضربة في الأرض يمكن أن تأتي بمعلومات جديدة، أو تدعم ما هو سائد، أو تصحح البعض منها، احتمالات جد واردة. فما هو متفق عليه اليوم، يكون محل اختلاف غدا.

وتبقى مجهودات الباحثين متأخرة في ميدانين، كما يصرح بذلك ما قبل التاريخ الفرنسي (ليونال بالو) وهذا في مجال الترتيب التاريخي المطلق. هذا مقارنة مع النتائج المحصل عليها في شرق إفريقيا التي عرفت تقدما أحسن بكثير في هذين الميدانيين. وأسباب التأخر في نظرة تعود إلى إنعدام الأحافير البشرية التي ترجع إلى دور البلايستوسين الأسفل، وإلى التواريخ الحاصلة بطريقة البوطاسيوم أرغون، إلى جانب فقدان المستوطنات السكينة التي تعود إلى العصر الحجري القديم. لذا يصعب اليوم معرفة قدم الاستقرار البشري في كل شمال إفريقيا، وكذلك مناطق من الصحراء الكبرى، إلا بالإعتماد على فرضيات حول علاقات الارتباط بين الحيوانات ونمو الصناعات الحجرية. ونظرا لانعدام رسوم طبقية أرضية كافية، مساحة، معددا، يصعب إثبات تواصل الاستقرار البشري وديمومة تواجده في نفس المكان على إمتداد فترات زمنية طويلة من تاريخ الموقع، وإن كان هذا الاستقرار محتملا جدا. ومعرفة هذه الأمور تعد جوهرية بالنسبة للباحث فيما قبل التاريخ، فما هي الفائدة التي يريد أن يحققها

ويتوصل إليها، إن لم تكن معرفة حقيقية بهذا التواصل في الزمان والمكان لسكان المنطقة محل البحث، قصد الوقوف على خطوات النمو والتطور التي مرت بها، والتعرف، أيضا، على التجديدات التي أدخلها على مكوناته، من بين التجديدات التي أخذها من غيره، أي القيام بعملية الفرز بين الأصيل في هذه الحضارة والدخيل عليها. كل هذا يمكنه من تحديد محطات النشوء، الازدهار، التقهقر، الركود والاندثار، لموقع من المواقع الأثرية، ومن ثمة تحديد مكانته بين المواقع الأخرى، ومدى تأثره وتأثيره في غيره.

ومن بين القضايا المطروحة على الباحثين، إلى جانب المشكلات السابق ذكرها، مشكلة، أو نوع العلاقة التي توجد بين الحضارة العاترية والحضارية الموستيرية الأوربية، هذه الإشكالية المعقدة، ولم يتم الفصل في تحديد طبيعة هذه العلاقة، هل العاترية أصيلة ولم تتأثر بالموستيرية، أم حدث العكس؟ وكذلك قضية كيف تم الانتقال من الدور العاتري إلى الايبروموبسي، تحتاج هي الأخرى للبحث، وغيرها من المشكلات التي تنتظر الباحثين الجزائريين لتقديم وجهات نظرهم المبنية على مزيد من التنقيبات. ولم نتعرض كذلك هنا لمشكلة البشريات الحفرية التي سكنت الجزائر منذ العصر الحجري القديم الأسفل، لأن هي الأخرى من أعقد القضايا في بحث علماء الباليونتولوجيا Paleonthropologie.

هذه بعض الأفكار التي وردت المساهمة بها في هذا الملتقى العلمي، الذي نأمل أن تتبعه ندوات وملتقيات أخرى تنحصر في

البعض المشكلات التي تواجه الباحثين في هذا الحقل من المعرفة التاريخية.

الهوامش:

(1) – لا نريد الفرض، هنا، في الفترات السابقة لأن هذا يخرجنا عن القصد الذي سطرناه لهذه المداخلة.

(2) – حدث عام 1859 أن أعلنت الجمعية الملكية اللندنية للعلوم، عن حقيقة، طالما وقع خلاف كبير حولها منذ عدة قرون، وهي أسبقية استعمال الحجارة قبل المعدن في حياة البشر الأوائل، وهذا يدخل في منظور التطور العام الذي مرت به البشرية، لأنه لا يعقل أن يكون الإنسان قد اعتمد على المعدن قبل الحجارة، ومنذ هذه السنة بدأ مجال علم ما قبل التاريخ يتسع ويحقق نتائج علمية هامة.

(3) – راجع على سبيل المثال الكتاب المختصر لتاريخ هذه المرحلة والتقسيمات التي وضعت لها عند: Francis Hours, Les civilisations du pléolithique. coll. (Que-sais-je?), Paris, 1982.

(4) – انظر حول ظهور الفلاحين الأوائل: Jonathan Nortan Léonard, Les premiers cultivateurs. tard. Yvette Gogue, coll. Time-life, 1974.

(5) – الدليل المادي الذي يثبت اعتماد سكان هذه الإقليم على هذه الحبوب قبل أن تصبح مدجنة، هو عثور علماء الآثار على مناجل لحصدها في بعض المواقع الأثرية، وهي عبارة عن قرون بعض الحيوانات محفورة وبداخلها حص دقيق جعلها صالحة للقطع، راجع: هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة ميخائيل خوري، منشورات مكتبة بيروت 1959، ص 39، وفي اللوحة الأولى توجد صورة هذا المنجل.

(6) – حول الظروف التاريخية التي ساعدت على هذه النقلة النوعية الهامة، راجع على سبيل المثال: جوردون تشايلد، التطور الاجتماعي، ترجمة لطفي فطيم، الناشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1966، جاكتة هاوكس، أضواء على العصر الحجري الحديث، ترجمة وتعليق

يسرى عبد الرزاق الجوهري، دار المعارف، القاهرة، بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، بيروت، عدد 67، 1983.

(7) – تعبير وضعه عالم ما قبل التاريخ (جوردون فون تشايلد) يقصد به مختلف (الثورات) التي حدثت خلال العصر الحجري الحديث من اقتصادية، اجتماعية، مناخية، جنسية، راجع G. Childe, De la préhistoire à l'histoire trad. Andre Mansat et Jean Barthalan, Gallimard, Paris.

(8) –فيما يلي تقسيما للعصر الحجري القديم، كما صار يعتمد من قبل علماء ما قبل التاريخ، كمثال فقط، الذي قسم إلى أربعة أدوار هي: 1 - العصر الحجري القديم العتيق من 2 مليون و300 ألف سنة إلى حوالي مليون 400 ألف سنة. 2 - العصر الحجري القديم الأسفل من حوالي مليون و400 ألف سنة إلى 100 ألف سنة. 3 - العصر الحجري القديم الأوسط من 100 ألف سنة إلى 35 ألف سنة. 4 - العصر الحجري القديم الأعلى من 35 ألف سنة إلى حوالي 10 آلاف سنة. راجع: F. Hours, op. cit.

(9) –الذي يعني واقعين: من جهة العلم الذي يدرس حياة البشر منذ أن وجدوا إلى غاية ظهور الفترة الزمنية التي عاشت فيها هذه البشرية. ومصطلح (ما قبل التاريخ Préhistoire) بدأ تداوله في أدبيات الثقافة الفرنسية منذ عام 1871 عندما ظهر لأول مرة في معجم Lettre.

(10) – على اعتبار أنها خالية من كل علامات التسجيل، مما يعطي للباحث حرية الاستنتاج والاستنباط العلمي السليم، ولا يكون تحت ضغط الظروف المحيطة به من فكرية أو سياسة، مثل ما يقع تحته المؤرخين الذين عايشوا الأحداث وسجلوها وكتبوا عنها متأثرين بها.

(11) – Exploiration d'un Sahara, Paris, 1864.

(12) – مع العلم أن مجموعة الأدوات الحجرية التي قام بجمعها الباحث الفرنسي (جاك بوشي دي بيرت) لم تسلم إلى المتحف الفرنسي إلى عام 1863. بعد أن صار الأمر الأدوات الحجرية مقبولا لدى الكثير من الباحثين، بأن الحجارة كانت الصناعة الأولى التي مارسها الإنسان قبل المعدن

(13) – Souville G., Les grottes à ossements et préhistoriques de l'ouest d'Alger, Lybica, T. 1, 1953, p. 22.

(14) – Op. cit., p. 23

(15) – Ginette Aumassip, Trésors de l'Atlas, E.N. A., Alger, 1986, p. 9/

(16) – Ginette et Louis Lefevre, Corps des gravures et des peintures rupestres de la région de Constantine. Mémoires du CRAPE et Métiers Graphiques, Paris, 1967.

(17) – G. Souville, op., p. 22.